علاقة الأدب والنقد بالنفس والأحاسيس

The relationship of literature and Criticism to psyche and feeling

عبد الله بن عيني [1*]

[1] جامعة امحمد بوقرة بومرداس (الجزائر) .

تاريخ الاستلام : 19 مارس 2022 ؛ **تاريخ المراجعة** : 17 أفريل 2022 ؛ **تاريخ القبول** : 31 ماي 2022

ملخص:

يجمع الدارسون على أن الأدب على صلة وطيدة بأحاسيس المتلقين والمبدعين، ولا يمكنه الاستغناء عنها، فقديما ربط نقادنا بين الأدب وشعور صاحبه، وجعلوا هذا الشعور بكل ما يؤثر فيه من عوامل وظروف متحكما في الأدب وتفاوته. وسار الدارسون حديثا على الطريق نفسه، وأكدوا بدورهم على أن الأدب أساسه العاطفة، وانفعالات المبدعين ومن تلقى عنهم.

والدرس النقدي بدوره ارتبط بالنفس، وقد عرف قدماؤنا دراسات نقدية نفسية، غير أنها كانت سطحية ولم ترقَ إلى علم مؤسس، أما في العصر الحديث فقد استلهم دارسونا ما جاد به علم النفس الغربي، واستطاعوا أن يبدعوا في الأدب ونقده، فكانت هناك دراسات متفردة ميزت الدراسة العربية، وجعلتها قائمة بذاتها.

الكلمات المفتاحية: أدب؛ نقد؛ نفس؛ انفعال.

Abstract:

Scholars argue that literature is closely related to the feelings of the readers and creators too, they also assert that this feeling is indispensable. Our critics have long linked literature to the feelings of authors and agreed that this feelings and all the factors and circumstances affecting it control literature. Recently scholars have followed the same path, emphasizing that literature is based on passions and emotions of the creators and their readers.

The critical lesson was associated with the psyche, in fact, our ancestors knew some critical studies based on psychology yet they were superficial and did not quite to a founded science. However, in modern era scholars were inspired by western psychology and were able to innovate in literature and it's critic, there were some unique studies that characterized the Arabic study and made it stand-alone.

Keywords: Literature; criticism; self; agitation.

*Corresponding author: e-mail: a.benaini190@gmail.com

مقدمة

لا أحد ينكر أن أحاسيس الإنسان على صلة وطيدة بما يصدره من إبداع، أي إن الأدب لا يستغني بحال من الأحوال عن تلك العواطف التي تدور في جوانح المبدعين، فالمبدع عندما يلتقي بمؤثر ما يتولد له انفعال وشعور بإزائه، أي تتكون لديه تجربة شعورية، فينقلها لنا نقلا موحيا في صورة مثيرة للانفعال، فنعيش التجربة الشعورية، وما وسم الشعر بهذا الاسم إلا لأنه تعبير راق عن الشعور، وما يتلقفه إلا شعور المتلقين، فإلى أي مدى تتجسد علاقة الأدب والنقد بنفس المتلقي وما يدور في جوانحه من أحاسيس وانفعالات؟ هذا ما سنحاول مناقشته والإبانة عنه، ولكن قبل أن نخوض في هذا الأمر سنحاول تحديد ماهية كل من الأدب والأحاسيس، باعتبارهما أمران أساسيان في العملية الإبداعية.

أولا: تعريف الأدب:

يُجمع الدارسون على أنه لا يوجد تعريف جامع مانع يعطينا المفهوم الوافي للأدب[1]، ومع ذلك لا نعدم أن نجد جملة من الدارسين تعطي تعريفا لهذا الفن، وتكاد التعريفات الخاصة به تتقارب في الماهية الحقيقية له على اختلافها، ومن هذه التعاريف ما جاء به شوقي ضيف من كون الأدب هو ذاك "الكلام الإنشائى البليغ الذى يقصد به إلى التأثير في عواطف، القراء والسامعين، سواء أكان شعرا أم نثرا"[2]، ويذهب الرافعي إلى "أن الأدب هو حفظ أشعار العرب وأخبارها والأخذ من كل علم بطرف"[3]، ومحمد مندور يقول بأن "الأدب هو كل ما يثير فينا بفضل خصائص صياغته إحساسات جمالية، أو انفعالات عاطفية أو هما معا"[4]، أما قطب فيرى بأنه "التعبير عن تجربة شعورية في صورة موحية"[5]، في حين يذهب أحمد الشايب إلى أنه "الكلام الذي يصور العقل والشعور تصويرا صادقا"[6].

ثانيا: تعريف الأحاسيس والعواطف:

هي جملة من الانفعالات التي تكون لها القدرة على نقل الصورة الحقيقية لمشاعرنا إلى الآخرين، تتميز بكونها لا إرادية في الغالب، وتؤدي إلى استجابات لا إرادية للمواقف المختلفة، فيتولد عنها تحريك للسلوك الإنساني وتوجيهه نحو عمل ما[7].

1- ينظر أحمد الشايب، (1994). أصول النقد الأدبي، ط2. مصر: مكتبة نهضة مصر. ص16.

2- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ط11. القاهرة: دار المعارف. ص7.

3- مصطفى صادق الرافعي، (1997). تاريخ آداب العرب، ط1. القاهرة: مكتبة الإيمان. ص24.

4- محمد مندور. الأدب وفنونه. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر، ص4.

5- سيد قطب، 2003. النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط8. القاهرة: دار الشروق، ص11.

6- أحمد الشايب. ص16.

7 - ينظر أحمد أمين. النقد الأدبي. القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر. ص31. وأحمد الشايب. ص180 وما بعدها.

ثالثا: علاقة الأدب بالأحاسيس:

إن الانفعالات التي تحدث في نفسية المتلقين هي انفعالات مستمدة من الانفعال الذي كان في نفسية المبدع، أي إن تجربة شعورية تم إسقاطها على نفسية المتلقي، بالاعتماد على الإيحاء والصياغة الجميلة والتعبير الصادق، بحيث يمكن القول بأن هذه التجربة الشعورية التي عاشها المبدع هي عينها التي يعيشها المتلقي، خاصة إذا كان المبدع عبقريا، وله القدرة الفذة على التأثير[1].

وهذا يعني أن الانفعال عند متلقي الإبداع يتماشى مع ما وهب مبدع النص من قدرة على نقل انفعاله، وما شعر به اتجاه الشيء، فإن زادت الموهبة والمقدرة تنامى الانفعال لدى المتلقي، وكان شعوره بالشيء أكبر، أما إن قلّت الموهبة والمقدرة فسيكون حتما الانفعال محدودا إن لم نقل ضعيفا، بمعنى أن تحريك السلوك الإنساني وتوجيهه يكون ناقصا.

إن "التجارب الشعورية إذاً هي مادة التعبير الأدبي...وقد يبدو هذا واضحا في الشعر –والغنائي منه بصفة خاصة- ولكنه في الحقيقة متوافر في سائر فنون الأدب"[2]، وذلك لأن الشعر لغة القلب أما النثر فلغة القلب والعقل معا، وبالتالي فإن الأحاسيس وكل ما يدور في النفس يكون أبيَن وأظهر في الشعر الغنائي الوجداني.

والطرح على هذه الشاكلة نجده عند نقادنا القدماء، فكثيرا ما ربطوا الإنتاج الأدبي بالحالة الشعورية لمنتجه، وبحثوا في الإنتاج الشعري للشاعر ومدى قدرته على التعبير عن نفسية صاحبه، بل جعلوا لكل شاعر حالة شعورية ينفرد بها عن غير، ويتفوق عليهم في قرض الشعر حتى قيل "كفاك من الشعراء أربعة: زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب. وزاد قوم: وجرير إذا غضب"[3].

وذلك لأن المشاعر النفسية لهؤلاء الشعراء مختلفة ومتفاوتة في الانفعال بالأشياء، فقد ينفعل زهير ويطرب لشيء من الأشياء يثيره، ولكن لا يرقى طربه إلى الأعشى الذي كان طربا على طول الخط، لأنه مدمن خمرة أفنى فيها حياته، والخمرة عامل مهم في الطرب، ولكنّه في الرغبة لا يدرك قدر زهير الذي عرف أنه ما رغب في أحد إلا مدحه بما فيه دون معاضلة، وفاق أقرانه في ذلك، ناهيك عن التفاوت بين الشعراء في المقدرة على النظم، واختلاف الموهبة الشعرية التي يتميز بها كل واحد.

وأتى العصر العباسي واستمر القول بفكرة ارتباط الأدب بخلجات النفس، وما يدور فيها من أحاسيس وعواطف، "إذ المؤكد أن كثيرين من النقاد والبلاغيين العرب قد لمسوا مظاهر هذه العلاقة على نحو أو آخر: فانتبهوا إلى الظروف التي تواتي النفس فتنشئ الأدب كما أحسوا بتأثير الأدب في النفس وإثارة ألوان عدة من

1- ينظر سيد قطب. ص12، 13. و عز الدين إسماعيل. التفسير النفسي للأدب، ط4، القاهرة: دار غريب للطباعة. ص5.

2- سيد قطب. ص16.

3- ابن رشيق،1981.العمدة، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5. بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة. ج1/ص95.

المشاعر، غير أن كتابات هؤلاء لم تتجاوز مرحلة الإحساس المبهم إلى الشرح الموضوعي، فلم يحددوا معالم التجربة الفنية، كما لم يشرحوا لماذا تتأثر النفس بهذا العمل الأدبي أو ذاك شرحا علميا موضوعيا. وربما استثنينا هنا عبد القاهر الجرجاني الذي حاول أن يشرح الدلالات النفسية لأشكال التعبير، ولكنه في الحقيقة لم يتجاوز الظواهر الفنية، فلم تتجاوز محاولته هذه مرحلة تأكيد الدور الذي تلعبه النفس في تشكيل العبارة"[1].

إن القدماء أكدوا على أن هناك ظروفا معينة تلائم النفس، وتثير الأحاسيس فتنتج أدبا، كما تنبهوا إلى أن هذا الأدب يتمازج مع عواطف المتلقين وأحاسيسهم، وخير من مثل هؤلاء النقاد، وجاء بنظرة متفردة عن علاقة الإحساس بالأدب هو عبد القاهر الجرجاني؛ حيث أقر بأن الإبداع على صلة وثيقة بالأحاسيس والمشاعر، وفي هذا يقول: "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق، وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده"[2].

ولا شك أن الجرجاني يؤكد من خلال هذا القول على ارتباط الأدب بأحاسيس المتلقين، فاستحسان شعر الشاعر أو استهجانه مرده لا إلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر في الفؤاد، أمر لا تدرك الأبصار، أمر متعلق بالشعور والانفعال، أمر يحسه المتلقي وهو يواجه الإبداع المثير، فالمبدع عند الإبداع يفرغ فيضا من الإحساس، ولا يتلقى هذا الإحساس إلا إحساس مشابه له في السمو والفيض.

وذهب ابن قتيبة قبله إلى كلام قريب من هذا حيث جعل "للشعر دواعٍ تحث البطيء وتبعث المتكلف، منها الطمع، ومنها الشوق، ومنها الشراب، ومنها الطرب، ومنها الغضب. وقيل للحطيئة، أي الناس أشعر؟ فأخرج لساناً دقيقاً كأنه لسان حية، فقال: هذا إذا طمع"[3].

إنّ هناك أشياء تحرك أحاسيس الشاعر وتجعله يبدع في قرض الشعر، هي أشياء من العاطفة ذاتها في بعض الأحيان وقد شهد بهذا حتى الشعراء على أنفسهم على غرار الحطيئة، الذي شهد لنفسه بالتفوق الشعري، وقدرته الفائقة على المدح إذا أغري بالعطايا الكثيرة، وسيطر عليه الطمع الذي يدفعه إلى الحصول عليها.

وإذا كان هناك ما يبعث على قول الشعر والانطلاق فيه، فإنه توجد "للشعر تاراتٌ يبعد فيها قريبه، ويستصعب فيها ريضه. وكذلك الكلام المنثور في الرسائل والمقامات والجوابات، فقد يتعذر على الكاتب الأديب وعلى البليغ الخطيب، ولا يعرف لذلك سببٌ، إلا أن يكون من عارض يعترض على الغريزة من سوء غذاءٍ أو

1- عز الدين إسماعيل: ص5، 6.

2- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة، ت: محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني. ص5، 6.

3- ابن قتيبة، 1932. الشعر والشعراء، ت: مصطفى أفندي السقا، ط2. مصر: المكتبة التجارية الكبرى. ص17.

خاطر غم. وكان الفرزدق يقول: أنا أشعر تميمٍ عند تميمٍ، وربما أتت علي ساعةٌ ونزع ضرس أسهل علي من قول بيت وللشعر أوقاتٌ يسرع فيها أتيه، ويسمح فيها أبيه. منها أول الليل قبل تغشي الكرى، ومنها صدر النهار قبل الغداء، ومنها يوم شرب الدواء، ومنها الخلوة في الحبس والمسير. ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكتاب"[1].

فالشاعر قد يتملكه العجز التام، ويفقد القدرة على الإبداع وقول الشعر، لظرف من الظروف يعترض صفاء قريحته، ويخالط نفسيته، فإن كان يشعر بضيق وفتور رغبة، يغطي على أحاسيس فلا يستطيع شيء إثارة انفعالاته؛ بل إنه في بعض أوقات اليوم حسب ابن قتيبة يعجز الشاعر عن خوض غمار العملية الإبداعية، وذلك بسبب خمود يصيب العاطفة حتما إذ لا تجد ما يفعّلها، ويحركها فتبدع.

ويرى ابن قتيبة أن بعض أوقات النهار قد تكون عاملا في خمود العواطف، وانعدام الانفعال بالمؤثرات كيفما كانت، ومهما بلغت درجة تأثيرها، وقد قال بشر بن المعتمر في هذا: "خذ من نفسك ساعة لنشاطك، وفراغ بالك، وإجابتها لك؛ فإن قلبك في تلك الساعة أكرم جوهرا، وأشرق حسنا، وأحسن في الأسماع، وأحلى في الصدور، وأسلم من فاحش الخطأ، وأجلب لكل غرة من لفظ كريم ومعنى بديع"[2].

إن إبداع المبدع نابع من انفعال دار في جوانحه، وولد تجربة شعورية تمخض عنها نتاج موجه إلى المتلقين وهو بدوره ينفعل ويعيش التجربة الشعورية ذاتها ومن ثم يمكن القول إن الأدب يرتبط بأحاسيس المبدع وأحاسيس المتلقين، وخير مثال على ذلك تمجيد العرب للشعر لأنه كان يفعل بها وبقلوبها ما لا يفعله شيء آخر، بحيث كان يؤثر فيها، ويغير مسار حياتها تغيرا له وزنه في الحياة، لهذا كانت تقام الحفلات وتقدم التهاني عندما يبرز شاعر في قبيلة.

ولعل خير شهادة على تأثير الشعر بالقلوب ودغدغته لعواطف الناس، وتغييره لسلوكاتهم، هو ما جاءت به أقوال الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث يقول: "ما خرج من القلب وقع في القلب، وما خرج من اللسان لم يتعد الآذان"[3]، فالشعر النابع من القلب، الممزوج بالعواطف المتأججة الصادقة في شعورها بالأشياء، دون شك سيكون محل قبول من طرف أحاسيس المتلقين، أي إن الانفعال بالشعور الصادق يكون أكبر وأكثر تأثيرا.

واعتبر الرسول صلى الله عليه وسلم الشعر حكمة في قوله: "إن من الشعر حكمة"[4]، إن الشعر علم وفائدة تضج بالحكم والفوائد الحياتية المختلفة، وهذا كله مغلف في ثوب من التعبير يسحر العقول، ويفتن القلوب، ويقلبها كيف شاء، وكأنها لا تعي إلا ما يرد عليها من شعر، على أن هذه الحكمة يجب أن تكسى ثوبا من البيان

1- المصدر نفسه. ص18، 19.

2- أبو هلال العسكري، 1952. الصناعتين، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،ط1. دار إحياء الكتب العربية. ص134.

3- ابن طباطَبا العلوي. عيار الشعر، ت: زغلول سلام، ط3. الإسكندرية: منشأة المعارف. ص54.

4- المصدر نفسه. ص53.

ينفث نفث السحر، فتبلغ غايتها في التأثير، وتحريك المتلقين إلى ما يراد منها، لهذا قال الرسول صلّى الله عليه وسلم: "إن من البيان لسحرا"[1].

وانظر كذلك قوله في شعراء الدعوة "هؤلاء النفر أشد على قريش من نضح النبل"[2]، كما أنه قال لحسان بن ثابت "اهجهم –يعني قريشا- فوالله لهجاؤك عليهم أشد من وقع السهام، في غلس الظلام، اهجهم و معك جبريل روح القدس، والق أبا بكر يعلمك تلك الهنات"[3].

فالتجربة الشعورية الصادقة تقوّم السلوك، والتعبير الجيد عنها يسحر القلوب ويذهب بالنفس كل مذهب وشعر حسان يكسر قلوب المشركين ويجعل معنوياتهم في الحضيض أكثر مما يفعل السيف والرمح؛ فحسان لوحده بتجربته الشعورية يمكن أن يفعل بالمشركين أكثر مما يفعل جيشه بأكمله.

وقد شهد النقد العربي القديم صيحات كثيرة تقر بالفكرة ذاتها التي أقر بها ابن قتيبة والجرجاني، وهذا عند الآمدي وقدامة وابن طباطبا والقرطاجني وغيرهم، وهذا لكونهم هم أيضا ربطوا الإبداع بنفسية صاحبه، وما يدور فيها من عواطف وانفعالات، واقفين على الربط بين أحاسيسه وتجاربه الحياتية، وما يتبع ذلك من تعويض عن الإحساس بالنقص، مبرزين قدرة المبدع على تحريك وجدان متلقيه، والتأثير فيه بل التأثير في عواطفه.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن القدماء، لم يستعملوا في هذا الباب كلمة إحساس أو عاطفة "فأنت تقرأ طبقات الشعراء لابن قتيبة مثلا، فتجد فيه قول الشعر للرغبة أو الرهبة، ولكن لا تجد فيه كلمة عاطفة؛ لأنها لم تخترع إلا في العصر الحديث، وكذلك في كتاب العمدة لابن رشيق وفي غيره من الكتب"[4].

ولم يخرج الدارسون في العصر الحديث عن هذا النهج خاصة بعد ظهور علم النفس، الذي أكد على أن الأديب في حد ذاته حالة نفسية تصب كل ما تحس به في أعماقها، فهم بدورهم ربطوا الأدب بالإحساس والعاطفة وجعلوا تفسيراتهم للأدب تنطلق من نفسية المبدع.

ومن الأدباء الذين أكدوا على أن الإبداع الأدبي على علاقة وطيدة بالمشاعر سيد قطب، وهذا عند تعريفه للأدب الذي ذكرناه سابقا، حيث أشار إلى أن "التجارب الشعورية إذن هي مادة التعبير الأدبي...وقد يبدو هذا واضحا في الشعر-الغنائي منه بصفة خاصة- ولكنه في الحقيقة متوافر في سائر فنون الأدب. ونضرب مثالا

1- المصدر نفسه. ص54.
2- ابن رشيق. ج1/ص31.
3- المصدر نفسه. ج1/ص31.
4- أحمد أمين. ص29.

بالقصة والتمثيلية، فالأدب لا يملك أن يعبر عنهما تعبيرا موحيا يثير انفعالنا ما لم يستحضر هو نفسه التجارب الشعورية لأبطالهما وحوادثهما وجوهما، وينفعل بهما انفعالا معينا"[1].

وأحمد أمين بدوره يؤكد على هذه الصلة الوثيقة بين الأدب والعاطفة، مشيرا إلى أنها "عنصر هام وقد كثر في تعبير الأدباء المحدثين أن فلانا مشبوب العاطفة أو هو ذو عاطفة بليدة، وهذه العاطفة هي التي تمنح الأدب الصفة التي نسميها الخلود، فنظريات العلم ليست خالدة...وإذا كانت العواطف أساسا من أسس الأدب وهي التي تجعله خالدا، وكانت العواطف لا تتغير حبب إلينا قراءة الشعر مرارا. فنحن لا نمل من إعادة قراءة المتنبي أو أبي العلاء، على حين أننا نمل بسرعة من قراءة كتاب علمي متى كنا نعلم ما فيه"[2].

ويورد الشايب فكرة متممة لما سبق ومؤكدة على أن الأدب والأديب والمتلقون للأدب لا يستغنون بحال من الأحوال عن الأحاسيس والعواطف، حيث يقول: "فإذا قلنا: إن العاطفة يجب أن تكون صادقة أردنا بهذا أن الأديب يجب أن يحس في نفسه الحزن أو الحماسة أو الإعجاب الذي يطالبنا أن نحسه أيضا...فمن المشكوك فيه أن يستطيع الأديب عرض العواطف القوية أو بعثها في نفوس قرائه دون أن يحسها في نفسه قوية؛ ثم يتنفس عنها بهذا الأدب القوي التأثير، والشاعر لا يبكيك إلا إذا استنفد ماء شئونه، ولا يشجيك إلا إذا استطار الهوى بلبه، والعامل الفذ للظفر بالسلطان العاطفي على القراء هو انبعاث الشعر والنثر عن نفس منفعلة صادقة الشعور"[3].

وهذا يدفعنا إلى القول بأننا "ما دمنا قادرين على أن نعيش تجارب هؤلاء الأدباء -مرة أخرى- وننفعل بها كما انفعل أصحابها، فإن هذا رصيد يضاف إلى أعمارنا، وزاد يضاف إلى أزوادنا في الرحلة القصيرة المحدودة على هذا الكوكب"[4]. فالأديب إذاً هو وسيلة تمكننا من أن نعيش حياة أطول، حياة تفيض بالتجارب الحية المتنوعة، تجارب غذتها العاطفة فجعلتها مفعمة بالحياة، وجعلتنا نلتفت إليها أحسن التفات ننهل منها، ونرتوي، فنتمكن من السير في درب النجاة.

رابعا: النقد الأدبي وعلم النفس:

عرف العصر الحديث ثورة علمية منقطعة النظير نتج عنها ظهور علوم جديدة، افتتن الناس بها، وانكبوا على دراستها وسبر أغوارها محاولين الاستفادة منها ، وتطبيق مبادئها، ونظرياتها في مختلف مجالات الحياة، ومن بين هذه العلوم علم النفس.

1- سيد قطب. ص16.
2- أحمد أمين. ص29.
3- أحمد الشايب. ص180، 181.
4- سيد قطب. ص20.

هذا العلم قد سخره الدارسون لخدمة الأدب ونقده، فكان أن درست الاعمال الأدبية من الوجهة النفسية، فسلط الضوء على صاحب العمل الأدبي، كما درست تجليات الحركة النفسية للأبطال داخل الأعمال الأدبية، وحاول الدراسون عموما استعمال علم النفس في كافة المجالات المتعلقة بالعمل الأدبي.

وقد يعتقد البعض أن الدراسة النفسية للأدب عند العرب وليدة هذا العصر، ولم يعرفوها إلا عندما وفدت من عند الغرب، إلا أن هذا الاعتقاد قد جانب الصواب، إذ عرف العرب منذ القديم بعض المبادئ المتعلقة بالنفس وعلاقتها بالأدب، لهذا ذهب –كما قلنا آنفا- النقاد إلى ربط الأدب بالأحاسيس،

وعلى هذا يمكن القول إنه عند التأسيس للنقد الأدبي، وما تبع ذلك من رقي وتوسع في الدراسة والتحليل والنقد، قد عرف أسلافنا إرهاصات لهذه الدراسات النفسية، وهي دون شك مخالفة لما قدمه علم النفس الحديث، ولا ترقى أبدا إلى أن تكون نظرية علمية مكتملة، ولكن على الرغم من هذا فهي تقعيدات أولية، لها وزنها في مجال الدراسة الأدبية، وكان لها دور في ترقية الأدب العربي منذ القديم وتجلية الدراسة النقدية التي صحبته.

وهذا ما يقره سيد قطب حين يشير إلى أنها عبارة عن ملاحظات نفسية ولا ترقى بالضرورة إلى مصاف العلم المؤسس حيث يقول: "فأما تدخل الملاحظة النفسية بصفة عامة في الأدب ونقده فهي أقدم من ذلك بكثير في الأدب العربي، لأنها عاصرته منذ صدر الإسلام، إن لم يكن قبل ذلك، وتمشت معه في نموه حتى بدت في هيئة قواعد ونظريات على يد عبد القاهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري"[1].

إن هذا لا يعني أن هذه الملاحظات النفسية هي الجذور الأولى لعلم النفس وهي بمثابة بعض من أسسه، لأن هذا العلم بقواعده وطرائقه وما حدده من نظريات متعلقة بدراسة الأدب وليد العصر دون جدال، وما وجد في نقدنا العربي الحديث من استعانة بعلم النفس لدراسة الأدب هو مستلهم من الغرب، ولم يكن أبدا امتدادا للملاحظات النفسية التي توصل إليها الأسلاف وهم يدرسون الأدب[2].

إن الدراسات النفسية للأدب أو بالأحرى الملاحظات النفسية - حسب سيد قطب-[3] قد عرفت رقيا في العصر العباسي، وخاصة عند عبد القاهر الجرجاني، ومما قاله في هذا الباب: "فإذا رأيت البصير بجواهر الكلام يستحسن شعرا أو يستجيد نثرا، ثم يجعل الثناء عليه من حيث اللفظ فيقول: حلو رشيق، وحسن أنيق،

1- المرجع نفسه. ص218.

2- ينظر المرجع نفسه: الصفحة نفسها.

3- وقد قال بفكرة ربط الجرجاني لنقده بالنفس، أو ما يشبه علم النفس خلف الله عند حديثه عن فكرة التأثير الأدبي معتبرا أن "هذه النظرية التأثيرية في جودة الأدب جزء من تفكير سيكولوجي أعم، يطبع كتاب أسرار البلاغة كله بطابعه، فالمؤلف لا يفتأ يدعوك بين لحظة وأخرى إلى تجربة الطريقة النفسانية التي يسميها المحدثون الفحص الباطني...وإذن فنستطيع أن نقول هنا إن أحد التيارات التي أثرت في التفكير السيكولوجي الذوقي عند عبد القاهر، إنما انحدر إليه من شيخه ومواطنه أبي الحسن الجرجاني"، محمد خلف الله،1947. من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر. ص93، 103.

وعذب سائغ، وخلوب رائع، فاعلم أنه ليس ينبئك عن أحوال ترجع إلى أجراس الحروف، وإلى ظاهر الوضع اللغوي، بل إلى أمر يقع من المرء في فؤاده"[1].

إن البصير المقصود من قول الجرجاني هو الناقد الحاذق الذي له قدرة فائقة على استحسان الشعر واستهجانه، نزولا أول الأمر عند ما يقع في القلب ويدور في خلجات النفس، والجرجاني يقيم ملاحظاته النفسية هذه بالنظر إلى المتلقي لا إلى المبدع، لأنه لم يكن يتحدث عن ملا بسات الإبداع، وإنما كان يطرق عملية التأثير والظروف النفسية التي تعتري متلقي الأدب الجميل.

والقول بعلاقة الأدب بالنفس نجده أيضا عند أبي هلال العسكري حيث يقف الموقف نفسه تقريبا فيربط نقد الشعر بالملاحظة النفسية، وهذ عند حديثه عن الاستعارة مؤكدا على أن "فضل هذه الاستعارة وما شاكلها على الحقيقة أنها تفعل في نفس السامع ما لا تفعله الحقيقة"[2]، إن القول تأكيد على وعي الناقد بدور الجانب السيكولوجي في عملية التلقين وهذا ما أقره محمد خلف الله، حيث يقول: "ظاهر –إذا مما أوردناه أن التفكير السيكولوجي في النقد كان موجودا عند مؤلف آخر-غير القاضي الجرجاني- في القرن الرابع الهجري، بل إن هذا المؤلف نفسه(العسكري) يبني تصوره لفضل الاستعارة على فكرة التأثير النفسي"[3].

ونجد أن ابن طباطبا كذلك يوجه الشاعر، ويحرص على قيمة النفس وخلجاتها في تلقي العمل الأدبي بحيث إن الأدب يُبدع لها بالطريقة التي تجعلها تتأثر "والنفس تسكن إلى كل ما وافق هواها، وتقلق مما خالفه، ولها أحوال تتصرف بها، فإذا ورد عليها في حالة من حالاتها ما يوافقها اهتزت له وحدثت لها أريحية وطرب، وإذا ورد عليها ما يخالفها قلقت واستوحشت"[4]، أي إن العمل الأدبي يواجه أول ما يواجه بالسلاح النفسي، ومدى تقبل النفس لهذا العمل ثم ينظر إلى الجوانب الأخرى المكملة للطرح النفسي.

وليس ببعيد عن هذا رأي ابن قتيبة الذي أقام الكثير من الرؤى النقدية على الملاحظة النفسية ودورها في تقبل العمل الأدبي وتقييمه؛ وهذا عند حديثه عن الوقفة الطللية، حيث يقول: "ثم وصل ذلك بالنسيب فشكا شدة الوجْد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق، ليميل نحوه القلوب، ويصرف إليه الوجوه، وليستدعيَ به أصغاء الأسماع إليه، لأن التشبيب قريب من النفوس لائط بالقلوب، لِما قد جعل الله في تركيب العباد من محبَّة الغزل وإِلف النساء...فالشاعر المجيد من سلك هذه الأساليب، وعدل بين هذه الأقسام، ولم يطل ويمل السامعين، ولم يقطع بالنفوس طلب المزيد"[5].

1- عبد القاهر الجرجاني: ص5، 6.

2- أبو هلال العسكري: ص269.

3- محمد خلف الله. ص105.

4- ابن طباطبا العلوي. ص53.

5- ابن قتيبة. ص14، 15.

إن الملاحظة النفسية التي توصل إليها ابن قتيبة من خلا ل دراسته للوقفة الطللية، هي أن النفوس البشرية تميل أكثر ما تميل عندما تجد حديثا عن النساء؛ لهذا فالشاعر ملزم باتباع هذا التوجيه النقدي، وذلك بالبدء بما يستميل النفس حتى تقبل على ما تبقى من القصيدة، ثم يكون الانتقال لموضوع آخر، على أن يكون تناول كل موضوع دون إطالة، بل يكون التناول بالاعتدال بين المواضيع المطروق في القصيدة، بحيث تُحفز النفوس لطلب المزيد، وتتحقق إثارتها.

هذه ملاحظة استنبطها ابن قتيبة من دراسة شعر الجاهلين ولم يؤسس لها، بل إن الفكرة في منطلقها من ابتكار الجاهلي، فعلى سذاجة هذا الجاهلي وعفويته أدرك تمام الإدراك أن النفس تستمال بالمحبب إليها، والمقرب من أحاسيسها، وهذا يقود إلى القول بأن الشاعر في جاهليته ميز بين أقرب الأشعار إلى قلبه، وأكثرها تأجيجا لعواطفه، وأيقن أنه أكثر ما ينفعل ويتأثر عندما يطرق موضوع النساء، ومن ثَمَّ يمكن القول إن بوادر التنبه للأثر النفسي في الشعر كان في الجاهلية، ولكن التنبيه لفكرة التنبه هذه لم يكن إلا على يد ابن قتيبة في الشعر والشعراء.

يمكن القول إن "الملاحظة النفسية في النقد القديم، قد عنيت بشيء من طوائف الأسئلة التي يثيرها المنهج النفسي في النقد الحديث، ويتصدى للإجابة عنها، وقد وصل بعضها إلى نظريات قائمة، واكتفى بعضها بملاحظات متفرقة، وكان للمنهج نصيبه على كل حال، من هذا النقد الموغل في بطون التاريخ"[1].

أما في العصر الحديث فقد عرفت هذه الملاحظات النفسية قفزة نوعية، إذ لم تعد ضيقة بالشكل الذي كانت عليه عند نقادنا القدماء، وهذا نتيجة ازدهار العلوم وميلاد علم النفس الذي جاء به سيجموند فرويد مؤسس علم النفس، هذا العالم النمساوي تعمق في الدراسة النفسية وأسس لهذا العلم الجديد وحاول تطبيق الكثير من رؤاه على الإبداع بمختلف أشكاله، وكان للأدب الحظ الأوفر في هذا الاهتمام،

فهو يرى أن الإنسان يخفي مكبوتات في اللاشعور، وإبداع المبدعين ما هو إلا كشف عن هذه المكبوتات أو بالأحرى هو كشف عن اللاشعور، على أن الغريزة الجنسية لها الدور الأكبر في هذا الكبت، لهذا فسلوكات الإنسان يجب أن تفسر على أساس النزعة الجنسية لديه باعتبارها تمثل أكبر شق في اللاشعور[2].

وما كان من نقادنا ودارسينا في العصر الحديث إلا أن استلهموا ما توصل إليه هذا العالم وتلاميذه من نتائج في باب دراسة النفس ودراسة الإبداع وحاولوا إسقاطها على الإبداع الأدبي العربي قديما وحديثا.

1- سيد قطب. ص235.

2- ينظر حسين الحاج حسن، 1996. النقد الأدبي في آثار أعلامه، ط1. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ص81، وما بعدها.

ومن هؤلاء نجد أمين الخولي الذي كانت له دراسة في باب النقد النفسي بعنوان "البلاغة وعلم النفس"، توصل من خلالها إلى ارتباط البلاغة بعلم النفس ودعا إلى ضرورة دراسة البلاغة على ضوء هذا العلم، ثم تلها دراسة محمد خلف الله "التيارات الفكرية التي أثرت في دراسة الأدب"، ودراسة بعنوان "نظرية عبد القاهر الجرجاني في أسرار البلاغة"[1].

كما أبدع كتابه الشهير "من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقد"، حاول فيه التقعيد للدراسات العربية في باب علم النفس أشار فيه إلى دوره في تقديم محاضرات علم النفس في مصر حيث يقول: "وفي سنة 1938 أنشأت كلية الآداب بالقاهرة دراسة جديدة لطلبة الدراسات العليا بها، جعلت موضوعها (صلة علم النفس بالأدب)، وعهدت إلى الأستاذ الجليل أحمد أمين وإليّ القيام على هذه الدراسة، فتقاسمنا العمل فيها، بعد أن استعرضنا جوانبها معا، وبعد أن حددنا وسائلها وأهدافها"[2].

وثم أطل طه حسين معتمدا هذا المنهج في الكثير من كتبه، حيث قام بدراسات تحليلية لنفسية لبعض الشعراء ومنهم أبو العلاء، إذ تعامل معه على غير المعتاد، وذلك ببحث حياة الشاعر وظروفه وأحداث عصره وتحليل قصائده تحليلا نفسانيا ذوقيا[3]، وفي هذا يقول: "وأول ما أواجهك به من ذلك وأنا أقدر أنك ستلقاه منكرا له ثائرا عليه، هو أن اللزوميات ليست نتيجة العمل وإنما هي نتيجة الفراغ، وليست نتيجة الجد والكد، وإنما هي نتيجة العبث واللعب، وإن شئت فقل إنها نتيجة عمل دعا إليها الفراغ، ونتيجة جد جر إليه اللعب"[4].

ثم تلاه العقاد في الكثير من الدراسات المتعلقة بالشخصيات ومن بينها (عمر بن أبي ربيعة)، و(جميل بثينة)، و(ابن الرومي حياته من شعره)، حيث تحدث عن مزاجه وأثره في إسرافه في كل شهواته، معرجا على وسوسته وتطيره وتشاؤمه وشذوذ أطواره، فهو حسبه مختل الأعصاب غير أنه في أثناء العملية الإبداعية يكون في صحته العقلية التامة[5]، ثم نجد لهذا المنهج اهتماما عند المازني في (حصاد الهشيم)، وكتابه(بشار)، كما كتب سيد قطب (التصوير الفني في القرآن الكريم)، و(كتب وشخصيات)[6]

ثم جاء عبد القادر المازني وتناول شخصية بشار بن برد الذي عرف بهجائه الحاد، وقد أرجع سبب ولوعه بهذا الغرض لا إلى الحقد والكراهية بل لشعوره بالنقص لأنه كان كفيفا، ومن الموالى فعوّض هذا بلسان لاذع[7].

1- سيد قطب. ص218.

2- محمد خلف الله. ص.د.

3- ينظر المرجع نفسه. ص21.

4- طه حسين. مع أبي العلاء في سجنه، ط12. القاهرة: دار المعارف. ص101.

5- ينظر سيد قطب. ص239.

6- ينظر المرجع نفسه. ص235، 236.

7- ينظر المرجع نفسه. ص242.

وهذا دون أن ننسى مدرسة نفسية قامت بالكثير من الدراسات على ضوء علم النفس، وقد صبت كل اهتمامها على ملابسات العملية الإبداعية، وحاولت تحييد الظروف التي تحيط بالمبدع عند الإبداع، وقد أسسها مصطفى سويف "الذي يعتبر كتابه (الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة) بمثابة نقطة الارتكاز الجوهرية لأعمال هذه المدرسة التي لم تلبث أن تشعبت بعد ذلك لدى تلاميذه، فكتبوا بحوثهم ودراساتهم اللاحقة عن بقية الأجناس الأدبية، كتب شاكر عبد الحميد (الأسس النفسية للإبداع الفني في القصة القصيرة)، وكتبت سامية الملة (الأسس النفسية للإبداع الفني في المسرح)، وتكونت في الثقافة العربية نواة مدرسة لعلم نفس الإبداع"[1].

الخاتمة:

بقي أن نقول لقد كانت هناك دراسات عدة في العصر الحديث، ارتبطت ارتباطا وثيقا بما توصل إليه فرويد ولا مجال لحصرها، وركزت في دراستها على علاقة الأدب والنقد بالنفس والإحساس، وعلى هذا فإن الأدب لا ينفصل بحال من الأحوال عن نفسية مبدعه، ولا عن نفسية متلقيه، وهذه حقيقة تفطن إليها القدماء وأقرها النقد منذ القدم، غير أن التفطن مختلف بين القديم والحديث، أو قل إن نظرة الإنسان الحديث فيها نضج وتمحيص أكثر من القديم، إذ لم يعد الدارس المحدث يتعرض للأدب بالملاحظة النفسية الساذجة، بل وضع قواعد، وسن سننا، أضحت مفاتيح تُمكن الأديب ودراس الأدب من التوغل في الإبداع، والكشف عن الملابسات النفسية التي تخللته كيفما كانت.

- المراجع:

- ابن رشيق،1981. العمدة، ت: محمد محي الدين عبد الحميد، ط5. بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة. ج1.

- ابن قتيبة، 1932. الشعر والشعراء، ت: مصطفى أفندي السقا، ط2.مصر: المكتبة التجارية الكبرى.

- أبو هلال العسكري، 1952. الصناعتين، ت: علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم،ط1. دار إحياء الكتب العربية.

- أحمد الشايب، (1994). أصول النقد الأدبي، ط2. مصر: مكتبة نهضة مصر.

- أحمد أمين. النقد الأدبي. القاهرة: كلمات عربية للترجمة والنشر.

- حسين الحاج حسن، 1996. النقد الأدبي في آثار أعلامه، ط1. بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع.

1- صلاح فضل، 2002. مناهج النقد المعاصر، ط1. القاهرة: مريت للنشر والمعلومات. ص71، 72.

- سيد قطب، 2003. النقد الأدبي أصوله ومناهجه، ط8. القاهرة: دار الشروق.

- شوقي ضيف، تاريخ الأدب العربي(العصر الجاهلي)، ط11. القاهرة: دار المعارف.

- صلاح فضل، 2002. مناهج النقد المعاصر، ط1. القاهرة: مريت للنشر والمعلومات.

- ابن طباطَبَا العلوي. عيار الشعر، ت: زغلول سلام، ط3. الإسكندرية: منشأة المعارف.

- طه حسين. مع أبي العلاء في سجنه، ط12. القاهرة: دار المعارف.

- عبد القاهر الجرجاني. أسرار البلاغة، ت: محمود محمد شاكر. جدة: دار المدني.

- عز الدين إسماعيل. التفسير النفسي للأدب، ط4، القاهرة: دار غريب للطباعة.

- محمد خلف الله، 1947. من الوجهة النفسية في دراسة الأدب ونقده. القاهرة: مطبعة لجنة التأليف الترجمة والنشر.

- محمد مندور. الأدب وفنونه. مصر: دار نهضة مصر للطباعة والنشر.

- مصطفى صادق الرافعي، (1997). تاريخ آداب العرب، ط1. القاهرة: مكتبة الإيمان.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA :

بن عيني عبد الله، (2022) **علاقة الأدب والنقد بالنفس والأحاسيس** ، مجلة أنسنة للبحوث و الدراسات، المجلد 13 (العدد 1)، الجزائر: جامعة زيان عاشور الجلفة، ص.ص 195-207.